المردود الاقتصادي للحياء من الله وسلوكيات الشارع العام (٥)

ما زلنا نتابع حديثنا عن الآثار الاقتصادية والمترتبة على التخلق بخلق الحياء من الله تعالى، وقد تبين لنا أن أهم ما يتحقق به الحياء من الله تعالى هو حفظ الرأس وما وعى، ولدينا جارحة مما وعته الرأس، هي على جانب كبير من الأهمية في موضوعنا ألا وهي اللسان. ماذا عن السلوكيات التي يمارسها الناس في الشارع العام، ويكون بطلها اللسان؟

اللسان من أهم الجوارح التي يترتب عليها نجاة الإنسان أو يترتب عليها هلاكه. وكلنا يحفظ الحديث الصحيح الذي يقول فيه النبي صلوات الله وسلامه لسيدنا معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما سأله عن مدى مؤاخذتنا بما تتكلم به، قال له: **«ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ. وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»** فحصائد الألسنة أو الكلمات التي تلفظ بها الشخص - إن كانت في غير مرضاه الله تعالى - هي أهم أسباب الوقوع في نار جهنم، وفي الحديث الصحيح أيضاً **«إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»** إلى هذا الحد بلغت أهمية الدور الذي تقوم به هذه الجارحة- اللسان- في مصير الإنسان، ومن ثم فإن الحياء من الله تعالى إذا كان بعض ما ينطبق عليه هو حفظ اللسان من الوقوع في الأخطاء المهلكة، فإنه يكون بصدقٍ خيراً كله، ولا يأتي إلا بخير.

أما ما يمكن أن نتصور حدوثه في الشارع العام بناء على تجاربنا الواقعية فإنه عند حدوث أي احتكاك بين اثنين، سواء بسبب اصطدام خفيف بين سيارتين، أو بسبب تقدم شخص على شخص في طابور مثلاً، تنطلق الألسنة بالألفاظ الجارحة، والتي قد تتطور إلى التشابك بالأيدي بل إلى وقوع أحداث جسيمة وخطيرة.

لو أن الناس يتمثلون الحياء من الله تعالى لحافظوا على اللسان من أن ينطلق بالسوء، أو أن يقع في الأعراض، أو أن يتفوه بالكلمة التي ربما تهوي بصاحبها في النار سبعين خريفاً.

ما أهم الآثار الاقتصادية لهذا السلوك؟

الحادثة الفردية لو عولجت بالحكمة فإنها ستنتهي بحفظ حقوق الطرفين، أما المشاجرة اللفظية، فهي ترهق أعصاب المشاركين فيها وتضيع وقتهم، وتشتت عقولهم وتخرجهم من وعيهم، ومن ثم لا يتمكنون من استخدام قواهم في الإنتاج المفيد، ولا يتحقق لهم إنجاز الأعمال التي خرجوا إلى الشارع من أجلها، ويحتاجون لقضائها إلى وقت ثان، كان يمكنهم أن يقضوه في العمل والإنتاج.

إن الناس إذا ساد بينهم هذا السلوك في التعامل، فلن يتفرغوا لإثراء الحياة وبناء المجتمع، وستنخفض الإنتاجية المتوسطة لأفراد المجتمع ككل، وإذا انخفضت إنتاجيتهم، انخفضت دخولهم وإذا انخفضت الدخول انخفضت مستويات المعيشة، وعاش الناس حياة قاسية من جراء هذا السلوك الذي لم يهذب بالتخلق بخلق الحياء من الله تعالى.

ونستطيع أن نرى الصورة المغايرة للصورة السابقة، إذا تصورنا أن رد فعل من وقع عليه الضرر، أو مورس في حقه الخطأ، فاستشعر الحياء من الله تعالى وقرر أن يكظم غيظه، وأن يتخلق بخلق الحياء فلا تصدر منه كلمة نابية، بل يقول لمن أساء إليه، «عفا الله عنك» عندها ربما يضطر المسيء إلى أن يثوب إلى رشده، ويعتذر لأخيه بل ويصر على أن يعوضه عما لحقه من ضرر، ويفترقان وهما أخوان نفوسهما راضية، وأعصابهما غير مضطربة، وينصرفان إلى أداء أعمالهما، وممارسة مهامهما في الإنتاج والعمل وإثراء حياة المجتمع.

هـذه الـصورة تـؤدي إلى تقـدم المجتمـع ومـضاعفة دخلـه، بيـنما الـصورة الأولى قادتنـا كـما بينـا إلى نقـص الإنتاجيـة، ونقـص الـدخول، وانخفـاض مـستويات المعيـشة. فـالمردود الاقتـصادي لخلـق الحيـاء واضـح، وهـو جانـب مـن جوانـب الخير التي يأتي بها الحياء.

بعض الناس يؤمن بأن يرد الصاع صاعين كما يقولون؛ وأن لا يتسامح في حقوقه، حتى لا يتهم بالضعف، فما رأيك في هذا السلوك؟

رد الصاع صاعين، هذا عدوان غير مبرر، لأن الذي يسمح به الإسلام ـ لكنه لا يفضله ـ هو المعاملة بالمثل، يقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:١٩٤] أما السلوك المفضل والذي يدعو إليه الإسلام، فإنه الصفح والتجاوز حفاظاً على طاقة أعضاء المجتمع حتى لا تتبدد في الطريق الخاطئ الذي لا يعود بفائدة على أحد، أما طريق الصفح والتجاوز فإنه يحفظ طاقات الناس ويعطيها الفرصة كي تستخدم فيما خلقت له من إثراء الحياة وبناء المجتمع يقول الله تعالى- بعد أن أباح المعاملة بالمثل – مفضلاً الصفح والمغفرة ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى:٤٣] فالسلوك المطلوب إسلامياً ليس رد الصاع صاعين، وإنما العفو عن الصاع الأول ومقابلته بالصفح والغفران، استشعاراً للحياء من الله تعالى: يقول سيدنا على كرم الله وجهه «إن التقى ملجم» أي أن التقي يضع على فيه من التقوى لجاماً يمنع لسانه من الانطلاق ومجاراة المخطئين في حقه، بالخطأ في حقهم، وإنما يعفو ويصفح، ويحفظ لسانه من أن ينطلق بما لا يليق في حقه كمسلم يستحي من الله تعالى أن يراه في حالة لا ينبغي أن يرى عليها المسلم التقي.

خلاصة القضية أن المعاملة الطيبة، والدفع بالتي هي أحسن، يقوي العلاقات بين الناس، ويحل المودة محل العداوة، ويجعل الناس يتفرغون للعمل والإنتاج وبناء المجتمع المتماسك القوي، الذي ترتفع فيه مستويات المعيشة، ويهنأ بالحياة الطيبة.

والله ولى التوفيق